يبدأ الكاتب من تلمس الواقعي، ملتقطاً مجموعة من التفاصيل الصغيرة التي تحيط بحياة بطله الفلسطيني «علي»، الشاب المغترب في باريس. لكن امكانيات الصدق التي أومأت إليها البداية سرعان ما تنهار أمام شغف الكاتب بالمباشر الذهني والمعادل الرمزي.

هكذا يعود «علي» ذات يوم إلى بيته الصغير في باريس، ليجد أن «كابيليوك» (الصهيوني الشرير) قد احتله عنوة، دون أن تشير الرواية إلى أي مبرر داخلي لهذا الفعل، معتمدة على فعل حدث خارجها (احتلال فلسطين). ثم لا يتورع هذا الأخير عن اغتصاب حبيبة الأول وتحويلها إلى عاهرة، ملمحاً إلى «رمز» الحبيبة المغتصبة من خلال وعي المغتصب «... وعندما يقول الصليبيون جئنا بالعنف لتحرير القدس، ستقول هذا هدفي أيضاً. فالقدس لك مثلما هي لهم مدينة مقدسة» (ص٩٦).

هنا يوصلنا الكاتب إلى النمطين الذهنيين اللذين يمثلان قطبي الصراع على المستوى الايديولوجي الذي يهيمن على امتداد الرواية، والذي يشير، في الوقت نفسه، إلى معنى النقيض الذي أراده الكاتب، معتمداً على تقديم شكلي الوعي المتناقضين، مباشرة، وبتكرار باهظ على الذهن والاحاسيس لرتابته وشدة جفافه. أما الأحداث التي تعصف بالرواية، فتبقى عصية على الفهم والاستيعاب – اذا سلمنا بمحدودية العقل الانساني وعجزه عن فهم الخوارق –، حيث تنشق سماء الرواية، فجأة لتقذف الينا وبلا انذار أو توقع بشخصيات تبدو فاعلة ومؤثرة في «الحدث» الروائي ونهاياته (العجوز التي تزرع نصلها في جسد علي [لماذا!]، وشقيقه الهابط إلى المكان القصي من عالم الغيب [كيف؟]..!). ناهيك عن الاضرابات العمالية التي تقتحم عنوة عالم الرواية، بحكم العادة، ولا لشيء الا امعاناً في تأكيد الكاتب «اخلاصه» لقضية الطبقة العاملة!

فالحدث الروائي هو التحقيق (الفني) للحدود لأوهام الكاتب اللامحدودة. انه يغرق في ذاته ويقوم لذاته، يكذب على الواقع والقارىء والفن ويبقى الصدق الوحيد لاكذوبته. يقوم كسياق مستقل فلا يستقل الا بوهمه. يدعي الانسجام مع أحداث التاريخ فلا يصل إلى ادعائه، لانه يفتقد من حيث الأصل قدرته على الانسجام مع نفسه، كحدث روائي قادر على تملك علاقات الواقع وتمثل جمالياته المميزة واعادة صياغتها في أحداث تنسجم مع ذاتها أولاً، كاساس لتحقيق الانسجام مع أحداث الواقع.

واذ نقفز عن الحدث الروائي، فإنه لا يبقى لدينا سوى الأساس الذي يشكل عصب الرواية، أي ثيمة العلاقتين المتناقضتين ايديولوجياً، حيث يمثل «علي» نموذجهما الذهني الأول، و«كابيليوك» نموذجهما الآخر... النقيض.

هنا، ليس بمقدورنا الا أن نقف أمام صورتين من صور التناقض الفكري الذي يكشف عنه المنولوج الداخلي المتكرر لكلٍّ من الشخصيتين.

فعلي مسكون بأمه وتاريخها (رمز الوطن)، ومنولوجه لا يخاطب الانا وانما يتوجه دائماً إليها... إلى الام التي تزوجت العم الخائن قاتل أخيه – الأب –، ثم لفظته بعد